جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - قسم التاريخ
أستاذ المادة: د/ سمير مزرعي السنة الثانية ليسانس

المحاضرة العاشرة: مصادر تاريخ الجزائر المعاصر (الكتب والمؤلفات الأجنبية)

1- كتاب "(A.Hanoteau et A.Letourneux)" la kabylie et les coutumes kabyles" "منطقة القبائل والأعراف القبائلية" لأدولف هانوتو وأرستيد لوتورنو":

أودولف هانوتو هو ضابط فرنسي، عين ملازما عند وصوله إلى الجزائر سنة 1845، وفي السنة الموالية تم توظيفه في الإدارة المركزية للشؤون العربية، فقد أسندت إليه مهمة التعرف على عادات وتقاليد المجتمع الجزائري بناء على رغبته، ولذلك تعلم اللغتين العربية والأمازيغية، ثم أسندت له عدة مهام عسكرية فيما بعد لخدمة برنامج الاستعمار الفرنسي للتغلغل في أوساط مجتمع منطقة القبائل، فقد عمل جنبا إلى جنب مع المستشار القانوني لمحكمة الجزائر "لوتورنو" الذي التقى به صدفة في الباخرة المتجهة من الجزائر إلى مرسيليا، وكان هذا الأخير مطلعا على الفقه الإسلامي وتمكنا من اللغة العربية.

صدر كتاب "منطقة القبائل والأعراف القبائلية" في ثلاثة أجزاء وهو كتب ضخم، فقد بلغ مجموع صفحاته الإجمالية إلى 1238 صفحة، فقد خصص الجزء الأول منه لدراسة البنية الطبيعية والجغرافية لمنطقة القبائل، فقد ركز على تقديم تقرير مفصل عن التركيب البيولوجي للمنطقة كوصف الغطاء النباتي وأنواع الحيوانات والطيور البرية التي تزخر بها المنطقة، وقد سعى من خلال كتابه إلى تكوين خريطة جغرافية وبشرية عن العمران البشري بنظرة علمية قلما نجدها في كتب الرحالة الأوائل، فدرس بكثير من التفصيل والتدقيق الأجناس التي تستوطن المناطق الحضرية والريفية لمنطقة القبائل، والتوزيع الديموغرافي للأعراش والقبائل، وكل ما يتعلق بهوياتهم الشخصية كالدين واللباس والغذاء والأعراف والتقاليد، ومختلف النشاطات الزراعية والاقتصادية والصناعية، كما خصص الجزء الثاني منه لمختلف تنظيمات (تاجماعث) الذي يسير التنظيم الاجتماعي للمجتمع القبائلي منذ فجر التاريخ، وكل ما يتعلق بالعادات والتقاليد المنتشرة في الأرياف ولمدن القبائلية كعادات الزواج والطلاق والأفراح والحقوق والواجبات والتشريعات والقوانين المعمول بها.

2- كتاب "تاريخ إنتفاضة 1871 في الجزائر" لـ (لويس رين) " Histoire de L'insurrection de 1871 en L'Algérie" (Louis Rinn):

إسم صاحب الكتاب الكامل هو (لويس ماري رين)، ولد في فرنسا سنة 1838، تقلد عدة مناصب، فقد كان رئيسا سابقا في المصلحة المركزية لشؤون الأهالي، ومستشار سابق للحكومة الفرنسية، وضابط جوقة الشرف، دخل إلى مدرسة سان سير وتكون فيها، قدم إلى الجزائر سنة 1864.

إن كتاب "تاريخ إنتفاضة 1871 في الجزائر" الذي صدر سنة 1891، والمقالين اللذان أصدرهما في المجلة الإفريقية ليعبران أيما تعبير عن المغالطات التاريخية التي أراد الكاتب تقديمها في طرحه التاريخي، سعيا منه للحط من قيمة ثورة المقراني والشيخ الحداد، وتقديم معلومات مضللة عن أحداثها والحط من قيمة شخصياتها، إذ يصفهم بذوي الأفكار البالية والذهنيات العتيقة التي تجاوزها العصر، بحكم أنها تقاوم القوانين العصرية وإشعاع الحضارة الفرنسية، إذ أن القراءة الجدية لمواضيع وعناصر هذا الكتاب، تدفعنا دفعا

مستمرا إلى الاعتقاد بأن المنهج الذي كتب به كان منهجا استعماريا، مطبوعا بحرب نفسية بسيكولوجية يحاول من خلالها تقزيم البنية الاجتماعية، التي ظلت تحكم المجتمع القبائلي لفترات طويلة وبكفاءة عالية.

فحديثه عن المجتمع القبائلي يقدم لنا إشارات واضحة أنه كان مستهدفا بغية عزله وتشويه تاريخه، فلا يوجد في نظره "شعب أو أمة أو كيان اجتماعي متماسك"، بل هناك قبائل وأعراش تحت رحمة حكم أسياد أو زعماء أو شيوخ، فغايته في كثير من المواضع في الكتاب إيصال أفكار سوداء ومضللة في حق المجتمع القبائلي مفادها أنهم اختاروا الانضواء تحت لواء الاستعمار الفرنسي بمحض إرادتهم، ووضعوا تحت سلطتهم مساحات شاسعة مقابل الحفاظ على وجودهم وامتيازاتهم، وإعفائهم من دفع الإتاوات والضرائب.

وتجدر الإشارة في ذات السياق إلى أن الكتاب اعتبر الأكثر اكتمالا حول تلك الثورة، وربما يكون هذه الشهادة التي قيلت في حقه أنه كان مؤرخها الرسمي الذي شهد وعاين أحداثها عن قرب، فقد شارك في قمع هذه الثورة في "جبل بوعريف" بالأوراس، ولهذا نجده خصص عدة أقسام في كتابه عن هذه المنطقة.

3- كتابات شارل روبير آجيرون (Charles-Robert Ageron):

شارل روبير أجرون هو مؤرخ فرنسي من مواليد 1923م في مدينة ليون الفرنسية، درس التاريخ حتى أصبح متخصصا في تاريخ الجزائر والحقب الاستعمارية، زار الجزائر لأول مرة عام 1945م لأداء الخدمة العسكرية وشاهد أحداث 08 ماي 1945م وما وقع خلالها من مجازر في حق الشعب الجزائري.

كان لشارل روبير أجرون إلمام واسع بتاريخ الجزائر المعاصر، فقد كرس له أربعين سنة من عمره في تدريسه في عدة جامعات فرنسية، فقد تغيرت نظرة شارل روبير أجرون تجاه الجزائر وكل ما يتعلق بها منذ أن جاء الجزائر سنة 1915م لأول مرة وهو يؤدي الخدمة العسكرية، وهنا اكتشف حقيقة الاحتلال الفرنسي خاصة وأنه كان شاهد عيان على تلك المجازر التي ارتكبتها فرنسا في حق الجزائريين في 8 ماي 1945م، وربما هذا ما جعله يتوجه على البحث العلمي لكشف مظالم الاستعمار، مذكرا نفسه وغيره من المؤرخين الموضوعين بأحقية الجزائريين في معرفة حقيقة تاريخهم.

وهكذا ما يمكن أن نقوله عن شارل روبير أجرون هو أنه استطاع ان يكتب عن تاريخ الجزائر بموضوعية، معتمدا في ذلك على استنطاق الوثائق الأرشيفية التي حملت حقائق الاحتلال وجرائمه اتجاه الشعب الجزائري، وقد تجاوز في ذلك مشاعر الانتماء إلى وطنه الذي أحدث في الشعب الجزائري كل تلك المآسي التي رآها، ورغم أنه فرنسي إلا أنه تأثر بما كان يحدث في الجزائر، واستطاع أن ينقل لنا صورة واضحة عن تاريخنا رغم بعض التجاوزات، وربما هذا ما يمكن أن نستشفه ونستشعره عند قراءة تعابير بعض كتبه، إلا أن منهجه عموما كان مقبولا إلى حد ما مكنه من إدراجه في قائمة المختصين الأكاديميين، الذين لا ينظرون إلى الأحداث على أساس الوطنية، وإنما على أساس حقيقة الوقائع وصدقها، وبهذا فهو يمثل صورة المؤرخ الموضوعي الذي قلما نجد مثله في المدرسة الفرنسية.

لقد خلف شارل روبير أجرون وراءه مجموعة كبيرة من المؤلفات المتنوعة بين ما هو سياسي وعسكري واجتماعي وغيره، كلها قضايا كان لابد من مناقشتها حسبه ولابد من إعطائها حقها من الدراسة حتى يسهل استخراج النتائج، ولا يسعنا في هذا المقام أن نذكر كل مؤلفات هذا المؤرخ بل نكتفي بذكر أهمها فقط، ومن أهم أعماله نذكر مايلي:

- تاريخ الجزائر المعاصرة.

- الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871 - 1919م.
- من الجزائر الفرنسية إلى الجزائر الجزائرية 1954-1962م.

4- كتاب مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1838) لـ "أدريان بيربروجير" " Voyage au Camp d'Abd-el-Kader (à Hamza...en Décembre 1837 et janvier 1838" (Adrien Berbrugger):

لويس أدريان بيربروجر عالم آثار ومستشرق فرنسي من أصول ألمانية، ولد بباريس في 11 ماي 1801م، أكمل دراسته في مدرسة شارلمان الثانوية، ثم التحق بمدرسة شارت العليا، أين درس الطب بين عامي 1829-1824م، دفعه ميوله إلى التاريخ والآثار إلى تلقى دورات في علم الحفريات في شامبليون فيجاك في مدرسة شارت (Lecole des chartes) بين سنتي 1829-1832م، واختار التخصص في علم الآثار، في سنة 1834م سافر إلى الجزائر، حيث شغل وظيفة كاتب لدى الوالي العام كلوزيل.

حصل "بيربروجر" على وسام جوقة الشرف عام 1865م من قبل الإمبراطور تابيليون الثالث"، تكريما له على أعماله المتنوعة وتميزه الإداري كمحافظ مكتبة ومتحف الجزائر، ولاسيما على جهوده في خدمة إدارة الاحتلال الفرنسي بالجزائر، وأبحاثه العلمية في مجال البحث والاستكشاف الأثري، وهي الجهود والأعمال التي مهدت الطريق للمشروع العلمي الاستشراقي الفرنسي بالجزائر، فضلاً عن أدواره والأعمال والمهام التي تولاها بالجزائر الصالح المشروع الاستيطاني طيلة 35 سنة، والخدمات الجليلة التي قام بها لصالح بلاده فرنسا، وفى "أدريان بيربروجر" بالجزائر العاصمة في شهر جويلية عام 1869م.

كانت هذه الرحلة مهمة استطلاع حول مقاومة الأمير في الجهة الشرقية، والتعرف على جيشه وإمكاناته الحربية، ونفوذه وسط الشعب، بعدما أحس الفرنسيون من خطر توسع مقاومة الأمير عبد القادر في الوسط والشرق وازدياد نفوده وانتصاراته، كان الوفد الذي أرسل من قبل إدراة الاستعمار الفرنسي في ظاهر الأمر غير عسكري وغير سياسي، فهو مؤلف من علماء وشخصيات مدنية مهتمة بالطب والفن والقانون.

وبينما لا نعرف بالضبط من الرحلة دور الشخصيات العضوة في الوفد فإن دور بيربروجير كان كبيرا، فهو لم يكن مجرد "مهتم" بالحياة العربية ووصف الأمير، ولكنه كان رجلا سياسيا وعالما وجاسوسا ومستشرقا من الدرجة الأولى ومؤرخا. لقد كان بيربروجير يدرس عادات وتقاليد وتاريخ الجزائريين وأفكارهم ولغتهم ودينهم، وكان الجيش يتلقى منه المعلومات الضرورية لمعرفة الأهالي بعد أن يترجمها ويغربلها المستشرق الخبير.

إن رحلة بيربروجير إلى معسكر الأمير في آخر سنة 1837م جاءت إذن في ظرف سياسي خاص، والمتأمل في محتوى الكتاب وما تخلله من وصف الطبيعة والسكان والمشاعر والطرقات وتفاصيل العادات والتقاليد؛ سيدرك أن مهمة "بير بروجير" غير عادية، وليست هي كتابة رحلة من النوع الذي يعبر فيه المسافر أو المشاهد عن مشاعره الخاصة حول ما يرى وما يسمع وما يحس، ولكن مهمته هي كتابة تقرير عن وضع السكان الاقتصادي والسياسي والعسكري وعن طبيعة المنطقة في الحرب والسلم، وعن خطط الأمير نحو الشعب ونحو الفرنسيين حاضرا ومستقبلا.

5- كتابات أوجين دوماس (Eugène Daumas):

أوجين دوماس ضابط عسكري برتبة جنرال سيناتور وقنصل وكاتب فرنسي، ولد يوم 04 سبتمبر 1803م بسويسرا، والتحق بالجيش الفرنسي كمتطوع ابتداء من عام 1822م، عين "ملازما أول" في سنة 1827م، ثم تم إرساله إلى مدرسة "ساومير"

(Saumur) العسكرية للخيالة، وقدم إلى الجزائر سنة 1835م تحت إمرة الماريشال كلوزيل، وقد أرسله هذ الأخير إلى معسكر ثم تلمسان، أين عمل بحماس وشغف كبيرين على دراسة اللغة العربية، واكتسب بسرعة معلومات واسعة ومميزة عن العادات والتقاليد الجزائرية.

لقد أدى أوجين دوماس دورا مزدوجا في نجاح عمليات الاستيطان في الداخل الجزائري، حيث ساهم في السيطرة على المقاومة الشعبية عبر عدة مناطق، وفي منطقة القبائل تحديدا التي ظلت عصية على الفرنسيين، فضلا على أنه كان رجل سياسيا ومفاوضا بارعا، وهو من الضباط السامين الفرنسيين الذين رسموا خريطة جديدة للصحراء الجزائرية، وفق معطيات تلك الفترة من الغزو والتوسع.

خلف أوجين دوماس العديد من الأعمال في الدراسات الإثنوغرافية الكولونيالية، وقد ترجمت المؤلفات الرئيسية منها إلى اللغتين الإسبانية والألمانية، وصدرت في فرنسا طبعات مختلفة لكتاباته حول الحياة المدنية والمجتمع المسلم في الجزائر، وله الكثير من المؤلفات من بينها:

- الصحراء الجزائرية دراسة جغرافية وتاريخية (1845).
- القبائل الكبرى (1847).
- الصحراء الكبرى أو مسار قافلة الصحراء إلى بلاد الزنود (1848).
- عادات وتقاليد في الجزائر (1853).
- خيول وعادات الصحراء (1858).
- الحياة العربية والمجتمع المسلم (1869).

تعكس مؤلفات أوجين دوماس سعة اطلاعه وتنوع معارفه بين علوم عسكرية وما يتصل بها، وبين اطلاع على قواعد اللغة العربية واللهجات المحلية الدارجة، والترجمة والتاريخ وعلوم الجغرافيا ومختلف العلوم الأخرى، التي اكتسبها طيلة سنوات مكوثه بالجزائر، وقد ساعدته وظيفته كمدير للشؤون الأهلية في أبحاثه وكتاباته بكل تأكيد، وهو بذلك يختلف عن بعض المستشرقين والإثنوغرافيين العسكريين الفرنسيين، الذين حلوا بالجزائر بعد الاحتلال وساهموا في تسهيل مهمة الجيش الفرنسي التوسعية.

اهتم دوماس بدراسة أحوال المجتمع الجزائري وخاصة أحوال المرأة ومكانتها في المجتمع العربي، ودرس عاداتها وتقاليدها وحياتها اليومية بصفة عامة، فقد أراد إشباع فضوله من خلال حب المعرفة والاطلاع، حيث لم يجد الكاتب في حياة المجتمع الجزائري مكانه المرأة في الكتابات العربية، وكان السبب وراء اختياره موضوع "المرأة العربية" أو بالحرى البدوية لسببين، هو أن أغلبية الجزائريين كانوا بدوا رحلا، وثانيا أن المرأة هي الركيزة للأسرة وهذا ما كانت تستهدفه الإدارة الفرنسية منذ أن وطأتها أرضي الجزائر لتفكيك المجتمع من خلال دراسة شخصية المرأة الجزائرية.

كانت الجنوب الجزائري محط اهتمام إدارة الاستعمار الفرنسي، ولم تكن لهم معطيات دقيقة عن الأرصاد الجغرافية، والجغرافيا النباتية والأوصاف الطبيعية والأجناس البشرية وعاداتهم وتقاليدهم ولهجاتهم، لهذا السبب قام دوماس بعدة رحلات استكشافية ممولة من قبل إدارة الاستعمار للصحراء الجزائرية، وقد وثق رحلاته وما جمعه من معلومات ميدانية جمعها من شهادات شفهية من العرب الرحالة والتجار والحجاج، وقد سار معهم خطوة بخطوة في الصحراء الجزائرية، وقد توقف معهم في كل نقطة أو بقعة لدراستها

جغرافيا، كما أنه جمع معلومات حول النشاط التجاري لتلك المنطقة وأسواقها والآداب والعادات والتقاليد وأنواع الصناعات المنتشرة فيها.

كما تركز اهتمام دوماس على منطقة القبائل، تكلم عن عادات وتقاليد المجتمع الجزائري بمناطقها الثلاثة ، وما يهمنا هو منطقة القبائل، حيث درس موقعها الجغرافي وقام كذلك بدراسة المجتمع القبائلي من الناحية مقارنة ملامحه وعاداته وصفاته بالمجتمع العربي، كما خصص فصولا لدراسة المؤسسات القبائلية المتكونة من العرش والمين والجماعة وغيرها، كما قدم معلومات دقيقة عن العرف والقانون القبائلي ومؤسسات الدينية ودورها في الحياة الدينية والاجتماعية، أما العنصر الخير فقد درس أوجين دوماس دخول الاستعمار الفرنس ي إلى منطقة زواوة.

6- كتاب "Bou-Farik : une page de l'histoire de la colonisation algérienne" صفحة من تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر (بوفاريك):

هذا الكتاب من تأليف العقيد شارل "ترومليه" (Corneille Trumelet)، قائد في وسام جوقة الشرف، ضابط في التعليم العمومي، عضو في جمعية الأدباء، ويعد هذا الكتاب من أهم الشهادات التي كتبها هذا العقيد؛ حول بدايات المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر من خلال نموذج مدينة بو فاريك، بحيث يقدم ترومليليه في هذا المؤلف الذي يتجاوز 500 صفحة صورة مفصلة، لما اعتبره الفرنسيون نجاحا نموذجيا في تحويل أرض موحلة ومستنقعية إلى مستعمرة زراعية مزدهرة.

يبدأ الكتاب بوصف دقيق لحالة المنطقة قبل الاحتلال الفرنسي معتبرا إياها فضاء مهجور لا يملكه أحد بحق، محاولا تبرير عملية الاستيلاء الاستعماري، ثم ينتقل إلى مراحل إنشاء المستعمرة؛ فيروي كيف جفف الفرنسيون المستنقعات وشقوا الطرق وحفروا القنوات، معتبرا هذه العمليات بعثا للحياة في أرض ميتة، بينما يتجاهل دور السكان الأصليين الذين أجبر كثير منهم على الرحيل أو على العمل القسري في مشاريع الاستصلاح، كما يتناول المؤلف التنظيم الإداري والسياسي الذي أقامه الفرنسيون في بو فاريك من إنشاء البلدية والمجالس المحلية إلى توزيع الأراضي على المستوطنين الأوروبيين، ويبرز الجهود الحكومية والعسكرية في حماية المستعمرة من ما يصفه بالاضطرابات العربية في إشارة إلى مقاومة السكان الجزائريين لسياسات المصادرة والتهميش، ويعرض الكتاب عددا من الأحداث والنزاعات بين المستوطنين والقبائل المجاورة، مقدما إياها غالبا من زاوية الدفاع عن المدنية الفرنسية في وجه ما يعتبره عداء بدائيا من الأهالي.

ومع أن الكتاب يقدم مادة تاريخية غنية عن تفاصيل الحياة اليومية والبنية الاقتصادية والاجتماعية للمستعمرة، فإنه يظل مع كل ذلك يعكس الرؤية الاستعمارية الفرنسية التي ترى في الاحتلال مشروعا حضاريا، هدفه تمدين الجزائر دون أي اعتراف بالدمار الثقافي والاجتماعي الذي لحق بسكانها الأصليين، وعلى هذا الأساس لا يمكن تصنيفه ضمن المصادر التاريخية الموضوعية، بل هو وثيقة صريحة تكشف طريقة تفكير الضباط الفرنسيين، ونظرتهم الاستعلائية إلى الأرض والإنسان الجزائري في القرن التاسع عشر.

7- كتاب " Souvenirs d'un officier français, prisonnier en Barbarie pendant les années 1811, 1812, 1813 et 1814 ..." ذكريات ضابط فرنسي أسير في بلاد البربر خلال السنوات 1811، 1812، 1813 و1814...":

يعود هذا الكتاب للنقيب الفرنسي "Contremoulins" (كونترمولان) ، والذي صدر سنة 1830م، وهو عبارة عن مذكرة شخصية يروي فيه تجربته الشخصية وخلاصات ملاحظاته حول الجزائر مقرونا بخطة عملية لاحتلالها، ففي بداية الكتاب يقوم الكاتب بسرد محاولة هروبه من الأسر من إسبانيا، ورحلته التي قادته إلى الأسر مجددا في يد قبائل مغربية، وظروف إطلاق صراحه بعد تدخل القنصل الفرنسي في طنجة في قضيته.

أقام كونترمولان بعد افتكاكه من الأسر في المنطقة حتى سنة 1814، حيث احتك بالجيش الجزائري وتعرف على أوضاع البلاد عن قرب، ويوضح المؤلف أن هدفه ليس كتابة وصف سياحي أو سرد تقاليد محلية فحسب، بل تقديم دراسة عسكرية عملية تخدم فرنسا في حال قررت غزو الجزائر، ويرى أن الدافع الرئيس لمثل هذه الحملة هو القضاء على القرصنة، التي تهدد التجارة الأوروبية في البحر المتوسط، والتي فشلت الحملات السابقة في استئصالها لغياب احتلال دائم.

يقترح الكاتب خطة غزو تقوم على هجوم خاطف بعد إنزال القوات على الساحل، مع استغلال عنصر المفاجأة بدلا من الحصار الطويل أو القتال وفق النظم الأوروبية التقليدية، إذ يعتبر الجيش الجزائري قليل الانضباط ولا يخوض إلا مناوشات متفرقة، ويوصي المؤلف بتشكيل قوة مشاة منتقاة من خمسة آلاف جندي متطوع نشيط، قادرة على الحركة السريعة في التضاريس الوعرة، ومزودين بأسلحة خفيفة وسيوف قصيرة وفؤوس صغيرة.

كما يرى أن الاحتلال الفرنسي سيكون مشروعا اقتصاديا مهما، فهو يرى بأن الجزائر بأنها أرض الميعاد الغنية بالموارد الزراعية والحيوانية كالماشية والخيول وغيرها، والحبوب والفواكه وقصب السكر والقطن والقهوة والكاكاو والعنب، ويرى أن إدخال أساليب الزراعة الأوروبية سيجعلها من أغنى المناطق.

يختم المؤلف كتابه بمقترح تكتيكي عسكري للجيش الذي يفترض أنه سيقوم بغزو الجزائر، حيث يقترح أن يضم 5084 رجلا في فوجين خاصين، مع تحديد أعداد الضباط والجنود ومهامهم، واقتراح ثلاث نقاط إنزال متزامنة شرق الجزائر وغربها، بينما يتولى الجيش الرئيسي محاصرة العاصمة لجذب انتباه المدافعين، مع توزيع منشورات على اليهود والمسلمين تعد بالحرية واحترام الممتلكات وتغري بالمكافآت المالية، ويؤكد في الأخير أن السيطرة على الجزائر ممكنة وذات فوائد استراتيجية واقتصادية عظيمة لفرنسا، كما يعرب عن استعداده الشخصي للعودة إلى الخدمة والمشاركة في الحملة، متمنيا أن تؤخذ توصياته بجدية من قبل صانعي القرار في بلاده.